سفينة نوح بين العلم والسياسة

وصلت إلى تركيا مؤخرا بعثة من علماء الآثار الفرنسيين لمتابعة البحث عن «سفينة نوح» فى منحدرات جبال «أراراط» فى موقع يسمى (إكرى داك) تغطيه الثلوج . ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالى ١٧٠٠ قدما. ويقع فى القسم الشرق من شمال تركيا

وستقوم البعثة الفرنسية بجمع النماذج من العناصر التى تؤلف طبيعة الأرض هناك والميزات «الطبيوغرافية» الأخرى التى يتخذها علماء الآثار عادة معاول لتتميم المعلومات التى توفرها لهم كتب التاريخ القديم وحوادثه المدونة

ويقع جبل أراراط فى صميم المنطقة التى وصفتها التوراة بأنها المكان الذى دفنت فيه زوجة نوح (عليه الصلاة والسلام) والبقعة التى زرع فيها سيدنا نوح أول كرم للعنب عندما انتهى به وبسفينته الطاف إلى ذلك الجزء من العالم كما تذكر التوراة ومفسروها

ويضم متحف اسطنبول نماذج من صخور جبل أراراط حلل عناصرها بعض علماء طبقات الأرض وقالوا بأنها تؤيد النظرية القائلة بأن هذا الجبل كان فى فترة من الأزمنة القديمة مغمورا بالماء إلا من قمه العليا التى أسفت نوحا (عليه الصلاة والسلام) فى أن يرسى سفينته على منحدرها عندما دهم الطوفان العالم كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ القديم والمصادر الدينية . ويدعى هؤلاء العلماء بأن نوحا قد التجأ بسفينته ونماذجه البشرية والحيوانية إلى أعلى قمة الجبل ليبدأ من جديد فى تنمية الأجيال للبهائم ولبنى آدم

وقد سبق أن قامت بعثات أجنبية أخرى للبحث عن سفينة نوح فى منطقة جبل أراراط منها بعثة أمريكية أنفقت فى عام ١٩٤٩ وقتا وجهدا ومالا كثيرا دون أن تعثر على ما ترغب إثباته من حقائق تاريخية

ويؤكد علماء الآثار استنادا إلى المصادر اليهودية والمسيحية بأن السفينة كانت فى حجم هائل طولها ميل واحد وعرضها ٧٥٠ قدما وعلوها ٤٥٠ قدما

وجدير بالذكر أن تردد البعثات الأجنبية على جبال أراراط ونحومها القريبة من الحدود الروسية الجنوبية كان مثار احتجاج السلطات الروسية الشيوعية التى ادعت بأن الغرض من تكرار هذه الزيارات هو التقاط الإشعاعات الذرية التى تنبعث من محطات التجارب الذرية الروسية لتقدير مدى استعداد روسيا الذرى . ويدعى الروس أن هذه البعثات الأجنبية ليست مكونة من علماء الآثار والتاريخ القديم فحسب ، بل أنها تضم بعض خبراء الذرة العسكريين الذين يستعملون أجهزة خاصة تركب على أعالى جبال أراراط القريبة من الحدود الروسية فتلتقط أولا فأولا أشعاعات التجارب الذرية التى تنبعث من محطات التجارب ومصانع الإنتاج الذرى الروسى الناشأ بعضها فيما وراء جبال الأورال الروسية فى منطقة لا تبعد كثيرا عن الحدود التركية

وقد نفت المصادر التركية والبعثات الأثرية هذا التفسير الروسى

البعث الإسلامى فى تركيا

كتب الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق

جدا لدرجة أنه لم يكن يصنع أو يستخدم أية آلة حجرية لأنه لم توجد معه مثل هذه الأدلة الحضارية .

والمعروف أن دوبنسون كان يعمل مساعدا للدكتور بروم فى حفائره ، ثم تولى مكانه بعد وفاته .

وقد طار الدكتور كنيث أوكلى ، مدير المتحف الطبيعى فى لندن ، إلى جنوب أفريقيا ليساعد فى فحص الهياكل المحنطة .

الأوسط فى جامعة لندن ومؤلف كتاب « العرب فى التاريخ » مقالا تحليليا فى مجلة « الشؤون الدولية » عن البعث الإسلامى فى تركيا . وكان الأستاذ قد أنفق مؤخرا بضعة أشهر فى تركيا يدرس عن كثب

يقول الأستاذ لويس إن نجاح القومية « الطورانية » فى تركيا إبان عهد أتاتورك لم يستطع أن تقضى على العناصر القوية فى تركيا التى كانت ولا تزال متمسكة بفكرة القومية الإسلامية . ومما ساعد هذه العناصر الإسلامية على الاحتفاظ بقوتها الكامنة تأثرها بالأفكار التقدمية التى نشرها جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والسيد أمير على وغيرهم من قادة الفكر الإسلامى الحديث فى الهند والشرق العربى

وقد وجدت هذه العناصر الإسلامية التركية نفسها مقيدة فى دعوتها إلى الوحدة الإسلامية فى أوائل عهد أتاتورك بسبب انكماش الامبراطورية العثمانية واقتصار سيادة الأتراك على الحدود الجغرافية الطبيعية لتركيا

ويعتقد البروفسور لويس أن أتاتورك وجماعته فى حملتهم على الإسلام وفصلهم بين الدين والدولة — هذه الحملة لم تكن فى مثل النجاح الذى يطيب للحكومة التركية أن تنشره فى الرأى العالمى . ففى عنفوان السيطرة الأتاتوركية كانت الدولة التركية تتبع سياسة « إسلامية » فى المناصب الإدارية وفى الجيش « وكانت الحكومة التركية رغم صبغتها الدنية تتعمد أن تختار كبار المسؤولين فى المراكز الوزارية والعسكرية من الأتراك المسلمين . وقد ازداد هذا الاتجاه فى أواخر أيام أتاتورك عندما أقصيت عن المناصب الإدارية الهامة عناصر تركية غير إسلامية

وكانت حكومة أتاتورك تعامل الأقلية المسيحية من الروم الأرثوذكس المستوطنة فى الأناضول معاملة تختلف عن الأقلية العربية والكردية التى كانت تشارك الأتراك الطورانيين فى العقيدة الإسلامية وتشاركها مشاركة تامة فى الحقوق والواجبات المدنية

ولما توفى أتاتورك وزالت هيبته القاسية على الحياة الإسلامية فى تركيا نشطت العناصر الإسلامية هناك نشاطا ملحوظا . ففى سنة ١٩٤٠ اضطرت الحكومة التركية برئاسة عصمت أنونو أن تعيد إلى الجيش التركى نوعا من الحياة الدينية فسمحت لرجال الدين بأن ينضموا إلى الجيش فى شكل أئمة ووعاظ على نحو ما كان متبعا فى إبان العهد العثمانى

وفى نفس الوقت شرعت وزارة المعارف التركية فى ترجمة « دائرة المعارف الإسلامية » وزيادة موادها . وخصصت الوزارة لذلك مبلغا عظيما من المال كافأت به الكتاب والعلماء الأتراك الذين ساهموا فى الترجمة والبحوث والدراسات الإسلامية التى أضيفت إلى الطبعة التركية من دائرة المعارف الإسلامية »

ولكن العناصر الإسلامية من حفظة الدين لم ترض عن عمل وزارة المعارف التركية وانتقدت مشروع ترجمة « دائرة المعارف » على أساس أن واضعى هذه الموسوعة هم من خصوم الإسلام الأجانب الذين لا يقصدون خدمة الإسلام وإنما يهدفون إلى تفسيره تفسيرا يتلاءم مع أهدافهم كمبشرين ومستشرقين أجانب يخدمون الاستعمار الأوربى فى الشرق الإسلامى . ولم تكتف هذه العناصر الإسلامية بالنقد فحسب بل نشطت بزعامة الزعيم الدينى « أشرف أديب » لوضع موسوعة إسلامية أسموها « الإنسكلوبيديا التركية الإسلامية »

وصاحب هذا النشاط للعناصر الإسلامية التركية اتجاه جديد فى الحكومة التركية التى جاءت فى أعقاب أتاتورك — اتجاه أزال كثيرا من معالم الديكتاتورية التى اتصف بها عهد أتاتورك . ومن ثم توفر للعناصر الإسلامية فى تركيا فرصة ذهبية لمضاعفة حماسها فى بعث الحياة الإسلامية من جديد فى البلاد التركية

وفى سنة ١٩٤٦ نجحت هذه العناصر فى حمل البرلمان التركى على مناقشة مشروع التعليم الدينى الأزامى فى المدارس الحكومية . وبعد مناقشة وجدل فى البرلمان والصحافة والمحافل العامة والخاصة توصلت الحكومة التركية فى سنة ١٩٤٩ إلى سن مشروع يوفر لجميع المدارس حصتين فى الأسبوع للتعليم الدينى فى أصول الإسلام وفقهه وتعاليمه . وترك الخيار لآباء الطلبة فى حمل أبنائهم على المشاركة فى هذه الحصص الدينية . ولكن الأكثرية الساحقة من الآباء تحمسوا لتربية أبنائهم تربية إسلامية . وعلى أثر ذلك شرعت وزارة المعارف التركية فى تأليف الكتب الدينية لطلبة المدارس . وجدير بالذكر أن هذه الكتب وضعت فى قالب جديد يختلف اختلافا بينا عن كتب التدريس الدينية المستعملة فى مدارس الشعوب الإسلامية الأخرى

ثم خطت الحكومة التركية فى سنة ١٩٥٠ خطوة جديدة فجعلت التعليم الدينى فى المدارس الحكومية والأهلية إلزاميا لا يتقيد بمشيئة الطلبة وآبائهم

وكان من الطبيعى أن تخلق هذه المشروعات أزمة فى المعلمين الدينيين ؛ ولذلك أسرعت وزارة المعارف التركية بانشاء معاهد خاصة لتخريج المعلمين الدينيين . والحقت بالجامعات التركية أقساما خاصة بالتعليم الدينى ولم تبخل بالمال على إنشاء المكاتب ونشر المطبوعات والكتب الدينية للعامة والخاصة . ثم سمحت باستعمال اللغة العربية فى الأذان وأخذت تذيع القرآن الكريم من محطات الإذاعة أسوة ببقية الشعوب الإسلامية الأخرى

وجدير بالذكر أن العناصر الإسلامية التقليدية فى تركيا أخذت تساهم فى الحياة السياسية مساهمة عملية . فناصرت هذه العناصر الحزب الوطنى على الحزب الديمقراطى (حزب الحكومة) . وذلك لأن الحزب المعارض كان يعد فى برامجه الانتخابية بمشروعات واسعة للبعث الدينى فى البلاد التركية

ويعتقد الأستاذ لويس أن موجة البعث الإسلامى فى تركيا لم تؤثر فى اتجاهات الشعب التركى نحو حلفاء الغرب ولم تؤثر بعد فى سياسة تركيا الخارجية . فبينما تقف الصحافة فى جانب العرب فى قضية فلسطين تقف الحكومة التركية فى جانب إسرائيل . وسبب ذلك أن زعماء الحركة الدينية فى تركيا جماعة تنتمى إلى العهد القديم المحافظ الذى لا يرضى عن الشيوعية السوفيتية ومطامعها فى البحر الأسود والقطاعات التركية المجاورة لروسيا .

ولما كانت الحكومة التركية تبنى سياستها نحو الغرب ونحو إسرائيل على أساس الخوف من التوسع الروسى ، فان العناصر الإسلامية فى تركيا لم تعد تستطيع أن تثبت وجودها بتغيير سياسة تركيا نحو إسرائيل كما فعلت العناصر الإسلامية فى إيران بزعامة آية الله كاشانى .

ولكن برغم هذه التيارات السياسية التى تحد من نشاط العناصر الإسلامية فى تركيا ، وبرغم عشرات السنوات من السيطرة الأتاتوركية والحد من نشاط الإسلام فى الحياة التركية فان الأستاذ لويس يعتقد بأن جذور الإسلام فى تركيا أثبتت بأنها راسخة متمكنة لم تزعزعها الرياح والزوابع .

ولا يستغرب الأستاذ لويس أن يتطور هذا الاتجاه الإسلامى فى تركيا إلى وسيلة توفق بين مبادئ الدولة الحديثة وبين تعاليم الإسلام على نحو التجربة الهامة التى تجرى الآن فى باكستان .

مختارات من الأدب الفرنسى
شعر ونثر
للأستاذ أحمد حسن الزيات